# المجال واستراتيجية المشروع المرابطي: تلمسان ونهاية الدولة.

د محمد البركة*

تقديم: إن الرغبة في تجاوز الهيكل الخارجي للأحداث التاريخية التي عرفتها الدولة المرابطية خلال سنواتها الأخيرة، لهو الداعي للبحث في هذا الموضوع، إذ لا يكفي أن يكون تسارع الأحداث التي أسهمت في سقوط الدولة، تعبير حقيقي عن كل ما جرى، لولا ما أحاط هذه الأحداث من عوامل مسهمة، قد يكون من بين أهم عناصرها المكان أو المجال ببعده الجغرافي السياسي، لا الجغرافي فقط، فعلى قدر سعي الباحثين إلى إبراز مكانة الرباطات والثغور التي أقامتها الدولة المرابطية في جميع مناطق مجال سيادتها، وخاصة تلك التي تقع في موضع التماس بينها وبين خصومها المحتملين خلال مرحلة بناء الدولة، فإن انهيار هذا الثغر أو ذلك خاصة منه المسهم في حماية الدولة، قد يكون سببا رئيسا إلى جانب أسباب أخرى في انهيار الدولة أو الإعلان المباشر عن بداية الانهيار؛ إذ النهاية السياسية للدولة المرابطين لا تفهم على وجهها الصحيح، إلا إذا وضعت في إطار الصراع مع الموحدين من جهة، وفي إطار الصراع على المجال وكسب الولاء من جهة ثانية.

وإذا كان أغلب الباحثين قد أبرزوا- فقط- دور دعوة ابن تومرت في أفول دولة المرابطين، فإن الدعوة لوحدها لا يمكن أن تكون كافية لإسقاط الدولة رغم وجود العصبية، لولا وجود عوامل أخرى لا تتعلق بالبيئة المساعدة على اعتناق الدعوة، وإنما عوامل بعضها مرتبط بدرجة الوعي بمكامن الضعف في جسم الدولة المرابطية، خاصة إذا كان هذا الضعف مجالي، ضعف سعت الدولة عبر إجراءات متعددة وسريعة للتغلب عليه، لكن يبدو أنه ظل حاضرا

*- أستاذ باحث بجامعة سيدي محمد بن عبد الله- الكلية متعددة التخصصات بتازة- المغرب.

وبقوة في وعي أصحاب وقيادات الدعوة الجديدة، ذلك بأن لكل دولة مكامن ضعفها، ومسار الوعي بالضعف من طرف الخصوم هو المسهم الرئيس في إيغار الجرح وإعلان النهاية.

فما هي العوامل التي ساعدت الموحدين للتفكير في خرق الجهة الشرقية لمجال سيادة المرابطين؟ وكيف استطاعت الدعوة الجديدة تلمس قيمة الواجهة الشرقية إلى درجة الربط بين سقوطها وإعلان نهاية الدولة؟ بل لماذا سعى الأمير المرابطي جاهدا لحمايتها رغم الضعف العسكري للدولة؟ وما هو موقع تلمسان من استراتيجية الدولة حفاظا على نفسها وتثبيتا لبقائها ووجودها؟

المجال وبداية الوعي بأهميته الاستراتيجية: إن التطور الدقيق الذي طرأ على وضعية المجال بنظر بعض الباحثين، من كونه انتقل من تصرف المجموعات الساكنة الأصلية (القبيلة)، إلى تصرف الحكم المركزي المتصاعد الساعي إلى توظيفه في التوزيع والتعمير والترحيل والاحتواء، لهو تطور بارز وجلي، فإذا كانت أيام الموحدين الأوائل تكشف عن هذا التطور، فإن الاستشعار بقيمته ظهر خلال السنوات الأخيرة من عمر الدولة المرابطية، وإلا ما هي قيمة مجال تلمسان في حماية الدولة المرابطية؟ ولماذا هرع الأمراء المرابطون إلى حمايته؟.

لذلك فإن البحث في هذا الموضوع هو محاولة تريد أن تعرض لمعالم منهج يبحث قيمة المجال في قيام الدول أو انهيارها، انطلاقا من كون رمزية المجال تفرض على الباحث أخذه بالاعتبار، وهذا يعني أن قيمته في مجموع الأحداث لا تكاد تنحصر أو تحد، لذلك فإنه لما وجدنا مجال تلمسان لا يحظى إلا بالقليل واليسير من الانتباه، من طرف الباحثين المهتمين بالتاريخ المرابطي، كان لا بد أن نسجل عنه بعض الملاحظات، ونجمع له بعض المعلومات المعرفة به، خاصة وأن مجال تلمسان ليس مجالا ثانويا عند أمراء المرابطين، بل مجال رئيس، له دور كبير في حماية الدولة من جهة، واستمراريتها أو أفولها من جهة ثانية، فالدفاع عنه من طرف الأمراء حتى الاستشهاد (تاشفين بن علي شهيد تلمسان)، دليل واضح على حيويته ومركزيته في مشروع الدولة.

ولما كانت اللحظات الأخيرة من عمر الدولة المرابطية غير مستوفية للبحث برأينا، ليس من باب البحث في عوامل انهيار الدولة، بل من زاوية الاستماتة في الدفاع عن المشروع المرابطي وبقائه، فإن البحث في الصعوبات والقرارات والإجراءات المتخذة لإنقاذه، تبدو للناظر من بعيد

كلها واضحة المعالم، لأنها قصيرة الأمد متداخلة الأسباب، لكن سرعان ما يتبين أن هذا الوضوح ما هو في الحقيقة إلا خطوط رئيسة لملامح عامة تخفي الكثير من الأحداث السريعة، نظرا لأن زمن الأفول تتسارع فيه الأحداث، حتى أنه يصعب رصدها ورسم دقائق ملامحها، لذلك يأتي التعميم بالقول عند المؤرخين بعبارات جامعة، مثل (ولما توفي علي وخلص الأمر للأمير تاشفين، كثر الطائع لعبد المؤمن)[1]، (وخرج تاشفين بعد وفاة أبيه قاصدا تلمسان، فلم يتفق له من أهلها ما يريد، فقصد وهران، فحاصره الموحدون بها)[2]، (فسير علي بن يوسف ولده تاشفين ليكون في قبالة عبد المؤمن ومعه جيش، فساروا في السهل وأقاموا على هذا مدة فتوفي علي بن يوسف في أثنائها)[3]...، عبارات تخفي الأسباب وروابط الأسباب، بل تخفي العوامل الحقيقية (القريبة منها والبعيدة)، التي دفعت بالأمراء إلى اتخاذ قرارات وإجراءات سلكت بها مسار الأفول.

تلمسان واستراتيجية الدولة: لقد جاء اهتمام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بمدينة تلمسان في إطار الوعي بقيمة المجال في حماية الدولة، بل في إطار رؤية جامعة ساعية إلى تأمين الجهة الشرقية للدولة، وذلك بترهيب أعداء صنهاجة التاريخيين من زناتة، حيث أخذ الملثمون (البلاد من أيديهم –زناتة– من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط)[4]، وكذا بجعل بني عمومتهم من صنهاجة جيرانا آمنين على دولة المرابطين، وكأن الدولة المرابطية الفتية كانت تبحث عن تأمين جهاتها الثلاث قبل الإقدام على فتح الجبهة الشمالية (الجوف)، فإذا كانت الجهة الغربية آمنة بحدودها الطبيعية البحرية، والجهة الجنوبية (القبلة) آمنة بوجود القبائل الصنهاجية التي سهر الأمير أبو بكر بن عمر على حمايتها، حين توجه إليها عشية بداية تسرب النزاع والتفكك في جسم الحلف الصنهاجي، فإن الجهة الشرقية كانت تمثل محطة ازعاج للدولة، لذلك فتأمينها برأينا فتح المجال لتلبية النداء والاستجابة للأندلسيين لانقاد مجالهم من ضربات النصارى، خاصة بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ، وفي ذلك تنفيذ للمبدأ الذي أعلاه المرابطون منذ خروجهم من الصحراء، والمتمثل في رفع راية الجهاد والدفاع عن الإسلام.

وهكذا "وفي سنة ثمان وستين وأربعمائة جهز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عسكرا ضخما وقدم عليه ابن عمه مزدلي اللمتوني[7]، وبعثه إلى مدينة تلمسان، وكان أميرها يومئذ العباس بن يحيى أمير زناتة، فكتب أمير المسلمين إليه كتابا بالعفو عنه إن نزل دون قتال، فخرج هذا العسكر من مراكش في أوائل شهر محرم ووصل إلى مدينة تلمسان عقب شهر صفر، فقدم

مزدلي الكتب إلى العباس بكتاب أمير المسلمين فعند وصول الرقاص بالكتاب إليه وقف عليه، فخرج من تلمسان فأنعم عليه الأمير مزدلي بمطلبه ووافقه في مذهبه، ورحل الأمير مزدلي إلى تلمسان ودخلها في مهلة وحال هدنة ثم ولي عليها ابنه يحيى ابن مزدلي ورجع إلى مراكش، فكان وصوله إليها في نصف ربيع الآخر من هذه السنة ومعه العباس صاحب تلمسان فأنعم عليه أمير المسلمين بكل خير، وأمر له بظهائر كريمة وانصرف إلى وطنه"[8]، وهو نفس الحدث الذي روى ابن أبي زرع وقوعه سنة 472هـ، حيث (بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلي لغزو مدينة تلمسان، فسار إليها في عشرين ألفا من المرابطين، فهتكها ودخلها، وظفر بولد أميرها معلى بن يعلى المغراوي فقتله)[9]، كل ذلك بغرض تقليص نفوذ زناتة وتأمين وجود الدولة المرابطية شرقا، بل والاستفادة من العداء القائم بين الحماديين والزناتيين[10]، رغم وعيهم التام بالعداء الذي يكنه الحماديون لهم كذلك".

ثم لما دخلت سنة 474هـ (طلع يوسف بن تاشفين إلى مدينة وجدة ففتحها، وفتح مدينة تنس ومدينة وهران...)[11]، لكنه رغم ذلك لم يكن إلا ليحرص على تأكيد علاقة حسن الجوار مع دولة بنى حَمَّاد الصنهاجية التي تقع شرق دولة المرابطين، وذلك لتأمين كل تحركاته المقبلة[12]، الهادفة إلى التوجه نحو الشمال، خاصة أمام العداء الواضح الذي يكنه الحماديون للزناتيين[13]، إلا أن بني حَمَّاد كانوا يتحينون الفرصة لضم أطراف من بلاد زناتة الواقعة تحت إمرة المرابطين، وتمَّ لهم ذلك عندما عبر الأمير يوسف إلى الأندلس سنة 479هـ، لكن محاولاتهم باءت بالفشل، مما دفعت بالأمير يوسف بن تاشفين إلى السكوت عن الانتقام منهم، وعدم الدخول في حرب معهم، رغم وجود أسبابها[14]، بل صالحهم رغبة في عدم فتح جبهة شرقية تستنزف جهد جيشه خلال تلك المرحلة.

ومما يعزز الرغبة في تأمين الجهة الشرقية للدولة المرابطية، رسالة التعزية التي بعثها الأمير يوسف بن تاشفين للمنصور الحمادي عندما تُوفي والده الناصر بن علناس الحَمَّادى سنة 481هـ، رسالة كشف يوسف بن تاشفين فيها عن نيته السلمية تجاه بنى حَمَّاد، التي استمرَّت بين الفريقين لأكثر من عشر سنوات.

إن روح الرسالة التي كتبها أبو بكر بن القصيرة عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المنصور بن الناصر[15]، دليل واضح عن طبيعة العلاقة التي كانت تجمع بين الطرفين، إذ أن روح

الرسالة العام كاف للدلالة على الحرب الباردة القائمة بين الطرفين، وهي تشير إلى وقوف الحماديين بقوة في وجه المرابطين، ووقوف المرابطين في وجه الحماديين، وأن مظاهر السلم بينهما لم تتحكم فيها وشائج القرابة الصنهاجية، بل المصالح وظروف الامتداد المرابطي، إذ لما بدأ المرابطون يحدون من مطامحهم بعد وفاة يوسف بن تاشفين، وبدأ انبعاث الخطر الموحدي، تحسنت علاقاتهما[17].

وهكذا، نظرا للمكانة الهامة التي باتت تحتلها تلمسان في استراتيجية الدولة، فإن المرابطين لم يكونوا مستعدين للتنازل عنها أو حتى السماح بوقوع اضطراب أمني قد يزعزع ولاءها ويربك سيادتهم عليها، ولعل هذا ما يفسر حرص الأمراء الشديد على حمايتها، وتخير أقوى القادة لولايتها، إذ لما وصل إلى مسامع الأمير يوسف بن تاشفين سنة 491هـ قيام ماخوخ الزياني عليه بها، واختطاطه لبلد بناحية تلمسان، خرج إليه الأمير محاربا (ففر أمامه وخرج من بلاده)[18]؛ إذ العبارة التي استعملها ابن عذاري المراكشي بقوله (وخرج من بلاده)، لها من الدلالة ما يكفي للتعبير عن وجهة نظرة المرابطين في تلمسان، حيث ظل اعتبارهم لها حدا من حدود الدولة خلال تلك المرحلة، والتنازل عنها هو بداية تنازل عن الأراضي المرابطية الشرقية، ومن ثم التنازل على كل الأراضي، بل إن حديث ابن عذاري عن فرار ماخوخ الزياني باتجاه الشرق بقوله (ففر أمامه) أي أمام الأمير المرابطي، هو حديث عن ملاحقة جزئية، لم تكن لتجعل الأمير المرابطي يواصل متابعته في مجال سيادة آخر، قد يثير عليه الكثير من التداعيات غير المحمودة خلال مرحلة اعتبرت في نظر العديد من الباحثين مرحلة الاستقرار، خاصة وأنها جاءت بعد الانتهاء من ضم الأندلس.

إن التجاور الحاصل بين أوطان صنهاجة وزناتة من جهة، والعداء الواقع بينهما جراء العداء التقليدي بين البرانس والبتر من جهة ثانية، قد حرك عند المرابطين الرغبة في القضاء على الزناتيين وتوحيد المجال بين الصنهاجيين، خاصة وأن زناتة قد اتخذت المغرب الأوسط وطنا لها، ومدينة تلمسان مركزا لنفوذها، بعد أن تعزز بفرار عدد منهم إليها عقب دخول يوسف بن تاشفين فاس سنة 462هـ[19] حيث كانت في الواقع تشطر الوطن الصنهاجي شطرين: شطر شرقي، وآخر غربي[20] لذلك بنى يوسف بن تاشفين بالقرب من تلمسان مدينة جديدة بالمغرب الأوسط هي عبارة عن

قلعة تحرس الزناتيين، وتقف لهم بالمرصاد سميت بتاكررات أي المحلة أو المعسكر[3]، وتلك هي استراتيجية المرابطين عند كل مجال يحصل لهم فيه تماس مع غيرهم.

ويبدو أن ولاية تلمسان كانت تتمتع خلال حكم المرابطين باستقلال لا يقل عن استقلال باقي الولايات الأربع الأخرى[3]، بل كانت أهميتها تفوق أهمية غيرها، بدليل رغبة بعض الأمراء المرابطين الفرار إليها والاحتماء بها، كما وقع مع أمير فاس يحيى بن أبي بكر سنة 500هـ[3]، ومما يدل على قيمة تلمسان في استراتيجية الدولة المرابطية، أنه لما ولي الأمير علي بن يوسف بن تاشفين الأمر، واستتب له ذلك، أمر بإرسال (الأمير أبو الطاهر إلى مكناسة بالجيش، والأمير يحيى ابن أبي بكر بفاس، والأمير مزدلي بتلمسان)[3]، وكل ذلك إيمانا منه بضرورة تأمين انتقال السلطة، إذ وبعد أربع سنوات من توليه إمارة المسلمين، ووعيا منه بأهمية مدينة تلمسان بل بضرورة تغيير الأشخاص واستبدالهم حتى لا تتغير سياسة الدولة وتحافظ على استراتيجيها المجالية في حفظ الدولة، عمد الأمير إلى استدعاء الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين سنة 504هـ وأمره بالخروج من غرناطة وعينه واليا على مدينة تلمسان التي استقر بها[3].

ومما يوضح الاهتمام الاستراتيجي لأمراء الدولة المرابطية وعنايتهم بتلمسان كقاعدة لبقاء الدولة، بل لحماية مكانتها وبقاء ركائزها والحفاظ على سيادتها، اهتمام أمراء الدولة بإقامة دار للسكة لضرب العملة المرابطية الذهبية (الدينار، نصف الدينار، وربع الدرهم)، حيث اعتبرت تلمسان من بين أهم الدور التي أقامها المرابطون لضرب عملتهم، سواء بغرض تأمين عملية التبادل التجاري بالعملة المرابطية أو بغرض فرض سيادتها في المجال الشرقي عبر العملة الذهبية وليس الفضية، حيث احتلت دار تلمسان مرتبة متقدمة من بين العشرين دار بعد سجلماسة وأغمات ومراكش وفاس ونول لمطة وسلا وسبتة في المجال المغربي[3].

ويبرز اهتمام المرابطين بتلمسان في بناء المسجد الجامع بها سنة 530هـ خلال عهد إمارة علي بن يوسف، وهو مسجد كانت هندسته المعمارية في غاية الجمال ودقة الإتقان، حيث رأى بعض المؤرخين أن البنيةَ المعمارية لمسجد تلمسان ضمت لمسات أَنْدَلُسية، وفنون معمارية قرطبية، بل بعضهم يرى أن عرفاء مسجد تلمسان قلّدوا جامع قرطبة تقليدًا مباشرًا في لوحتي الرخام اللتين تكسوان إزار واجهة المحراب، وكذلك سقف المسجد الخشبي الشبيه بسطح مسجد قرطبة، إضافة إلى البلاط شبيه به أيضا.

لقد واصل الأمير علي بن يوسف تنفيذ سياسة والده الأمير يوسف بن تاشفين اتجاه المنطقة الشرقية، فأعطاها من كبير عنايته واهتمامه الشيء الكثير، حيث كان دأبه على حمايتها والحفاظ عليها ثابتا استراتيجيا، وليس عابرا مرحليا، فقد انتدب لحمايتها الأمير تاشفين بن علي الذي لاحق الموحدين في خطتهم العسكرية الساعية لضرب الجهة الجنوبية والشرقية قطعا لأي دعم يمكن للدولة المرابطية أن تحصل عليه من بني عمومتها في الشرق أو بقاياها في الجنوب، بل وكسر شوكة الصنهاجيين بإحداث التفرقة بينهم.

المجال والاستراتيجية المضادة: وإذا كان الموحدون قد نجحوا في رصد مواطن الضعف في جسم الدولة المرابطية، بل استطاعوا رصد عمق استراتيجية المرابطين، فإن ذلك قد سهل عليهم ضرب ركن انهيار الدولة، مستغلين ترسيم الدولة للمذهب المالكي وتعسفها في فرض الوحدة السياسية على العديد من القبائل غير الصنهاجية، إضافة إلى استثمارهم لطبيعة التناقض الذي أحدثته الدولة ببعض قراراتها، مما قلب عليها ثورات في الأندلس كان أصحابها ينتظرون الوقت المناسب فقط لإعلانها، بل وأعطى للموحدين الفرصة للقض على المرابطين.

لذلك لما استفحل أمر الموحدين بالمغرب، استدعى أمير المسلمين علي بن يوسف ابنه تاشفين بن علي من الأندلس بعد أن كانت جيوشه بها موفورة ورياته عندها منصورة، استدعاه وولاه عهده، وقدمه لمدافعة الموحدين ومباشرة حروبهم، فكانت بينه وبينهم وقائع أكثرها عليه[7]، وقائع زادت بعد وفاة والده الأمير علي بن يوسف، الذي "عاقته الفتنة عن تمام أمره، ولم يتفق له ما أمله من استقلال ابنه تاشفين بشيء من الأمور"[8]، "وجاءت الأيام بخلاف ما أمل فيه فتشاءم به"[9].

إذ لما توفي الأمير علي بن يوسف سنة 537هـ، خلفه ابنه وولي عهده تاشفين، حيث قدر لهذا الأمير الذي لم تهزم له راية في الأندلس، أن يعرف طعم الهزائم في المغرب مرات أمام جيوش عبد المؤمن في نواحي السوس ثم في فاس وتلمسان[10]، فاضطر في أثناء هذا الصراع أن ينتقل من موضع إلى موضع، إلى أن كان نزول الموحدين عليه في تلمسان عند الصخرتين المتعارفتين عند أهل تلمسان فوق المنصورية في الجبل[11]، وهناك "لم يتفق له من أهلها ما يريد، فقصد مدينة وهران"[12].

لقد سلك عبد المؤمن بن علي الكومي خطة عسكرية محكمة، استفاد فيها من التضاريس الجغرافية المرتفعة التي سلكها أولا، ومن السبق في الحلول بهذه المناطق قبل الجيوش المرابطية التي كانت تلاحقه ثانيا، ومن حالة الفراغ العسكري الذي كانت تعيشه المناطق الشرقية والجنوبية ثالثا، وهو فراغ لا يعكس ضعف الدولة، بقدر ما يعكس اطمئنان الدولة على هذه الجهات وتقديم الأندلس عليها، قبل خروج عبد المؤمن، فهل تأخرت الدولة المرابطية في تأمين جهاتها الجنوبية الشرقية والشرقية بعد ظهور دعوة المهدي، أم أنها لم تكن لتقدر حقيقة الدعوة الناشئة، وقوتها في تهديدها؟ أم أنها كانت مطمئنة رغم ضربات الموحدين، لكن موت أمير المسلمين علي بن يوسف فاجأها؟.

وهكذا أثبت رحلة عبد المؤمن العسكرية إلى جبال تادلا وجبال غمارة مدى الاهتمام الذي أولاه الموحدون لبعض الجهات"، بل للجهة الشرقية خصوصا، إذ ما كان عبد المؤمن ليخرج "من تلمسان يريد المغرب- إلا- بعد توحيد المشرق كله"، وهذا يعني قدرة الموحدين على رصد معالم الضعف ومكامن الخور المجالي في الدولة المرابطية، وإتباعهم لإستراتيجية القضم انطلاقا من نقطة البدء، مقابل حالة الاطمئنان التي كان يشعر بها المرابطون اتجاه هذه المناطق، بما هي مناطق تابعة في ولائها إليهم، لذلك كان عبد المؤمن كلما وصلها وأوغل فيها قتلا، حل بها تاشفين تفقدا لحالها، فلا يجد بها من يناصره ولا من يستعين به، "فنزل- عبد المؤمن- من جبال تادلا وجبال غمارة، يقتل ويغنم، وسلك منها مستقبلا الجبال، ما بين فاس وتلمسان، تغير سراياه يمنة ويسرة، وتبعه الأمير تاشفين، فكان الموحدون يسيرون في الجبال المنيعة، حيث الأرزاق الواسعة، وكان تاشفين ينزل البسائط بعساكره، فلا يجد من البرابرة من يواصله، ولا من يستعين به ويداخله، وذلك بسبب الإدبار وانقطاع الدولة والأنصار".

إن ضعف التقدير- برأينا- الذي طبع أمير الدولة المرابطية تاشفين بن علي اتجاه حركة عبد المؤمن، ليجسد مستوى استراتيجية الموحدين، بما هي حركة لم تكن لتصل إلى المركز لولا بتر الأطراف، وأن البداية من جبال تادلا كان بهدف الوصول إلى جهة تلمسان قصد كسب ولاء الزناتيين المستوطنين بأحواز تلمسان الذين بايعوهم"، وأعلنوا القضاء على المرابطين ودولتهم.

لقد تبين من مجموع الأحداث التي عاشتها الدولة المرابطية على عهد أبي المعز تاشفين بن علي، أن أمير المسلمين رغم قوته العسكرية وحنكته القتالية" بالأندلس، وكثرة تنقلاته، حتى أنه "لم يستقر فيها ببلد، ولا اجتمع بوالد ولا ولد"[3]، كل هذا لم يكن عنده بنفس المستوى في بلاد المغرب، نظرا لضعف تمكنه من معرفة المجال، وعدم ضبطه من جهة، ونظرا لعدم تقديره لأهمية هذا المجال في حماية الدولة من جهة ثانية، إذ يكفي وعيه بذلك أن ينقله إلى تلمسان مباشرة دون ملاحقة الموحدين بالجبال أو متابعتهم"، مادام أن رغبتهم في المنتهى تبغي الوصول إلى تلمسان وضمان ولاء الزناتيين لهم.

ويشهد أبو علي حسن بن عبد الله بن حسن الأشيري، أحد أبناء تلمسان الذين عاشوا خلال القرن السادس عن وصول المرابطين إلى تلمسان أثناء ملاحقتهم للموحدين، والدعم الذي حازوه من بني حماد بإفريقية، فيقول: "ووصلت إلى الأمير تاشفين محلة من ملك أفريقية ابن حماد الصنهاجي برسم إمداده وإعانته، وعندما وصلوا إليه، برز إليهم بمجموعه، فملأ فحص تلمسان خيلا ورجالا"[4]، وهذا يدعو إلى التساؤل ليس عن السبب الذي راسل من أجله الأمير تاشفين بني حماد، ولكن عن الوقت الذي راسلهم فيه، وهو توقيت ينم عن وعيه المتأخر بخطورة الوضع الذي كانت تعيشه تلمسان في علاقتها ارتباطها ببقاء أطراف الدولة المرابطية، أي مركزية تلمسان في المشروع المرابطي.

وتكشف النصوص التاريخية خاصة منها تلك التي يوردها صاحب الحلل الموشية، أن دعم بني حماد للمرابطين لم يقتصر على الجهة الشرقية من بني عمومته، بل راسل الأمير تاشفين جهات مختلفة من الدولة "يستدعي أهلها، فوصله عسكر سجلماسة، وعسكر الإمداد من بجاية، ووصل من الأندلس ابنه الأمير أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين...، وذلك سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، وكان عنده من الروم نحو أربعة آلاف فارس، واجتمعت عليه العساكر المذكورة بتلمسان"[5].

إن هذا العدد الهائل الذي اجتمع للأمير تاشفين بن علي بتلمسان، ليكشف عن الإحساس الذي استشعره الأمير أثناء مواجهته للموحدين لحظة الإمارة وليس كما في السابق عند مرحلة القيادة"، وكيف أن الجهة الشرقية للدولة المرابطية اعتبرت خط الدفاع الأول والأخير للدولة، أي أن الدفاع عن تلمسان كان في واقع السياسة المرابطية دفاع عن الوجود والبقاء المرابطين، وهذا ما يفسر سبب اجتماع كل تلك الوفود والجيوش بتلمسان، مما يعني أن

مجال تلمسان مثل في بعده الاستراتيجي نقطة الحماية والتأسيس لمشروعين اثنين، نقطة الحماية والبقاء في استراتيجية المشروع المرابطي القائمة، ونقطة التأسيس والبداية في استراتيجية المشروع الموحدي الناشئ، إنها حالة الرهان على المجال من أجل البقاء والوجود.

وهكذا لما اجتمعت لتاشفين بن علي جيوش كل تلك الجهات "أمر بعرض الجيوش، وسائر الوفود والجنود، والتمييز عليهم، فميزوا وبرزوا، وعجب الناس من كثرة عَددهم وعُددهم واحتفالهم في الزينة، حتى زعموا أنهم لم يروا مثل تلك الجيوش حسنا وجمالا، وعدة وكمالا، واصطفت العساكر من باب القرمادين إلى الجهة المتصلة بأصل الجبل"[*]، فكان ذلك آخر جيش احتفل به المرابطون؛ فرغم عدده وعدته "إلا أن الإدبار كان له محاذيا، وبانقطاع دولته مناديا"[*]، مما يعني أن محاولات الإنقاذ التي استعجل الأمير تاشفين بن علي القيام بها في آخر أيامه،لم تكن لتسعفه في حماية الدولة، بل لم تكن لتمنع عنه سقوط الدولة "والدفاع عن ملك بلغ مداه، وتمت أيامه"[*].

لقد كشفت اللحظات الأخيرة من عمر الدولة المرابطية، خاصة على عهد الأمير تاشفين بن علي، أن الدولة لم تكن شهيدة أرض الأندلس سياسيا بل عسكريا، تبعا للجهد الذي قدمته هناك والتضحيات التي قامت بها من أجل الحفاظ على أرض الأندلس، لكنها في المقابل كانت شهيد أرض تلمسان سياسيا قبل عسكريا تبعا للمكانة الاستراتيجية التي كانت تحظى بها في المشروع المرابطي.

خاتمة: إن المرابطين مهما قيل عنهم وعن جهودهم، فإن المسافة الزمنية للقائل على اختلافها، لا بد لها أن تنعكس على تأسيس المعرفة، بل لا بد لها أن تنعكس على تحديد الرؤية والموقف بالحقبة قيد الدراسة، بعيدا عن التشويش أو التحميس والمبالغة، والأمر نفسه عند الحديث عن المسافة المصدرية وحجم الإطلاع عليها، الذي لا بد له أن ينعكس على التحليل والقراءة، فكلما كانت النظر جامعة بين الشمولية والدقة إلا وتحقق القراءة المناسبة، وكلما كانت النظرة جامعة بين السوابق واللواحق، كلما كانت جديرة بالاهتمام، لذلك فإن ما قيل في حق المرابطين من طرف القاضي أبي بكر بن العربي ليكفي للحكم عليهم، فهم- أي المرابطون- "قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين الذابون عنهم، والمجاهدون دونهم، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدم، ولا وسيلة، إلا واقعة الزلاقة، التي أنسى ذكرها حروب

الأوائل،... لكان ذلك من أعظم فخرهم، وأربح تجرهم"[8]، فهم من قالوا للأمير تاشفين بن علي أيام ولايته بالأندلس حين استحضرهم ونظر ما عندهم في لقاء عدوهم "الدولة لنا، فإما تركها أو حمايتها، لا يعذر منا أحد إلى لقاء عدونا، فإذا نحن استشهدنا فالأمر لمن شاء الله بعد"[9]، إنها المعرفة بالقصد عندهم، والمعرفة بالتاريخ عندنا.

إن المحاولة التي سعينا إلى إبرازها هي محاولة للتحسيس بأهمية هذا التوجه الدقيق للبحث في فقرات من تاريخ العصر المرابطي، حلقات نرى أن تناولها يمكن أن يكون اعتمادا على المقاربة المشار إليها، في غياب إستغرافية مرابطية، مقاربة اعتمدنا في عرضها على مادة مصدرية بعدية، مما يدعونا إلى الحيطة والحذر، نظرا لوجود نزعة التحيز والميول.

الهوامش:

1- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج4، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ط3، 1998م، ج4 صص96. 98- 99/ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي القاهرة، ط4، 2001م، ج4 ص59/ مؤنس حسين، تاريخ المغرب وحضارته، العصر الحديث بيروت، ط1، 1992م، ج2 ص43.

2- القبلي محمد، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط (علائق وتفاعل)، دار توبقال للنشر البيضاء، ط1، 1997م، ص53.

3- مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة البيضاء، ط1، 1979، ص130.

4- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب البيضاء، ط7، 1978م، ص296.

5- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط4، 2005م، ج7 ص126.

6- ابن خلكان، وفيات الأعيان:7/ 113.

7- ابن القطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1990م، ص 74/ابن الخطيب، الإحاطة: 3/ 274- 275.

8- ابن عذاري، البيان المغرب: 4/ 29. مجهول، الحلل الموشية: 28.

9- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، راجعه عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية الرباط، ط2، 1999م، ص181. 212.

10- عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، دار الشروق القاهرة، ط1، 1980م، ص176.

11- عويس، دولة بني حماد: 179.

12- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب: 181.

13- عويس، دولة بني حماد: 180.

14- عويس، دولة بني حماد: 175.

15- عويس، دولة بني حماد: 180.

16- ابن خاقان الفتح، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، مطبعة التقدم العلمية مصر، 1302هـ، ص109- 110/ ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، 1978م، 2/1/ 257- 260/ الأصفهاني العماد، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق عمر الدسوقي وآخر، دار النهضة مصر القاهرة، 4/2/ 346- 347.

17- عويس، دولة بني حماد: 180- 183.

18- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب: 4/ 58.

19- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب: 179.

20- حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي نصر، ط2، 1996م، ص71.

21- المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط 1997م، ج2 ص175/حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين: 197. 347.

22- حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين: 401.

23- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب: 200.

24- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج4 ص 48/ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط2، 1997م، ص110.

25- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب: 4/ 55.

26- حافظي حسن علوي، المرابطون (الدولة الاقتصاد والمجتمع)، جذور للنشر الرباط، ط1، 2007م، ص48.

26- مجهول، الحلل الموشية: 121. 130. ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 446.

27- المراكشي، المعجب: 295.

28- ابن عذاري، البيان المغرب: 4/ 99.

29- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1 ص446/ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط)، تحقيق مصطفى أبو ضيف، دار النشر المغربية البيضاء، 1984م، ص393/ شعيرة محمد عبد الهادي، المرابطون تاريخهم السياسي، مكتبة القاهرة الحديثة، ط1، 1969م، ص156.

30- أبو بكر بن علي البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط، 1971، صص49- 57/ابن عذاري، البيان المغرب: 4/ 104.

31- المراكشي، المعجب: 295. ابن خلكان، وفيات الأعيان: 7/ 126.

32- ابن عذاري، البيان المغرب: 4/98- 99.

33- البيدق، أخبار المهدي: 60.

34- مجهول، الحلل الموشية: 130.

35- مجهول، الحلل الموشية: 130.

36- ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 446. 448. 451.

37- مجهول، الحلل الموشية: 133. النويري، نهاية الأرب: 393.

38- تكرر ذكر (تبع) أي تبع تاشفين جيش الموحدين، أربع مرات في الحلل الموشية 130. 133. وهي نفس العبارة التي ذكرها ابن عذاري (خرج تاشفين بعساكره لتتبع الموحدين). البيان المغرب: 4/ 99. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب: 209.

39- مجهول، الحلل الموشية: 131. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب: 209.

40- مجهول، الحلل الموشية: 131. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب: 4/ 103.

41- النويري، نهاية الأرب: 393.

42- مجهول، الحلل الموشية: 131.

43- مجهول، الحلل الموشية: 131.

44- ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 454.

45- محمد القبلي، الدولة والولاية المجال في المغرب الوسيط: 11.

46- مجهول، الحلل الموشية: 140.

47- مجهول، الحلل الموشية: 123.